حول «شجرة العائلة»
للشاعر العراقى على جعفر العلاق

تميــزت الموجــة الثالثة فى حركة الشــعر الحديث بهــذا المنهج الأســلوبى الذى يعتمد على الصورة الشــعرية باعتبارهــا عصب البنية الفنيــة للقصيدة. ويتجاوز مفهوم الصورة لدى شــعراء هذه الموجة إطار المجازات والاستعارات إلى نوع من العناقيد الصورية التى تختزن موروثا ثقافيا وتداعيات لا شعورية واختراقات للواقع تنهض على مفهوم جديد للتجربة الشعرية ليس باعتبارها انعكاسا للواقع بل باعتبارها واقعا فنيا موازيــا له قوانينه الخاصة به وإن كان لا يقطع صلته بحركة الحياة من حوله. وقد أسرف بعض الشعراء فى الاتكاء على أحد عناصر هذه الصورة وهى التداعى اللاشــعورى بحيث أدى ســوء اســتخدامهم لهذا العنصر وتجاهلهم للعناصر الأخــرى وخاصة الموروث الثقافى إلى ظهور نماذج أقرب إلى المشــاهد السريالية فى مسرحيات غير مكتملة تفتقد التماسك وتمتلئ بالادعاء حول الحداثة الشعرية مما أدى إلى طغيان الغموض فى هذا الشــعر، ولكن بعض الشعراء خاصة الذين تمكنهم ثقافتهم وتسعفهم موهبتهم اســتطاعوا أن يؤسســوا رؤية شــعرية فوق مرتكزات من الوعى بالشعر الحقيقى وتجسيد هذا فى نماذج تعد تمثيلا أصيلا لهذه الموجة ومن هؤلاء الشاعر العراقى الدكتور على جعفر العلاق. وقد صدر الديوان الأول لهذا الشــاعر عام ١٩٧٣م بعنوان «لا شىء يحدث لا أحد يجىء»

ثــم صدر ديوانه الثانى «وطن لطيــور البحر» عام ١٩٧٥م ويجىء ديوانه الثالث «شــجرة العائلة» الذى صدر عام ١٩٧٩م ليؤكد أننا أمام شــاعر يمتلك رؤية شــعرية عميقة تضيئها ثقافة واســعة وإدراك شامل لطبيعة الشعر ووظيفته ويضم الديوان عشر قصائد تدور فى معظمها حول تجارب وجوديــة تجعل من الذات جذرا لهــا ولكنها تمتد حول هذه الذات فى دائــرة تتســع للواقع الذى يحيط بها – الحــب – الصداقة – الوطن – الاغتراب – الشوق – الزمن.

إن تجــارب هذا الديوان تصطبغ بالذاتية التــى تعد مرتكز التجربة الشــعرية لجيل الســبعينيات كله ولكن وعى الشــاعر وثقافته يجعلان من هذه الذاتية وعاء لاحتواء الواقع. إنها ذات فى حالة حوار شــعرى مع الوجود. أما الأســلوب الفنى فإنه يكتســى بمســحة شبه أسطورية تورق فى أعطافه صور شــعرية مركبة. إن الغموض الشــفيف يفصح عن طبقات من الشــعور تتراوح بين الحسرة والكشف والدهشة والغياب. إن القصيــدة لدى جعفر العلاق مزدحمة بالاحتمالات غنية بالدلالات تومئ ولا تبيــن ولكنهــا فى النهاية تهدى إلى اليقين. اليقين الشــعرى الذى يسكن الحواس والوجدان معا فى قصيدته «سيدة الفوضى» يلاحق الشاعر حلما وهما. إنها قصيدة الأسئلة والحيرة، ولكنها برغم أنها مفعمة بالقلق فهى تنطوى على فرح أقرب إلى فرح الحب، يقول الدكتور على جعفر العلاق فى قصيدة «سيدة الفوضى»:

من أين جاءت

هذه السيدة؟

فحركت غدراننا الراكدة
ألم يصح فى وجهها عاذل
ألم تخف من ريحنا الباردة
نشهد أنا ما رأينا هوى
مثل هواها
قيل ألقت بها
قبيلة، ألقت بها مركب مطاردة
أو قيل ألقت بها سحابة خفيفة صاعدة
يقال أو قيل ولكنها
أشاعت الفوضى
كما تشتهى
وأجرت الريح كما تشتهى
وأيقظت قطعاننا كلها
وأشعلتنا دفعة واحدة
من أين جاءت تلكم السيدة؟
وأين غابت تلكم السيدة؟

قالت «وداعا»
ثم لم تلتفت لريحنا المهمومة الباردة

فى هذه القصيدة القصيرة يلعب الغموض دورا حيويا فى الثراء الفنى الذى تنطوى عليه لأن الغموض يمثل نوعا من الغواية الشعرية التى يلجأ إليها الشاعر لكى لا يكشف عن أقنعته ولكى يحتفظ بلذة سره الفنى فى الوقت نفســه، وهى تحمل من الدلالات بقدر ما تستطيع بديهة القارئ

ووعيه أن يصلا إليه. هل هى امرأة أم ثورة أم حالة شـعورية أم تجربة ميتافيزيقية؟ إنها الاحتمالات التى يصنع منها الشـاعر يقينه الفنى ثم يتحدث العلاق عن مأساة بيروت فى قصيدة «الظبية القادمة»، فيقول:

يتقدمها دمها
تتعثر ما بين جثة طفل
وأشلاء قبرة
أو بقايا رداء
والصدى يتناثر
من تلكم القادمة؟
من هوى البحر غاسلة؟
ثوبها. وترددها
بالحصى والدماء
متخطية ساحة الذعر
بين يديها دم مثمر
موعد للعثور على الأهل
أو زهر الصبر أو جثث الأصدقاء

إن الشاعر لا يسكب أمامنا مشاعره الحسيرة على بيروت التى تقتل نفسها وإنما يرسم مشهدا يمتلئ بالمفارقة بين القبح والجمال بين الحب والكراهية وبين النبل والجريمة ثم يطرح أسئلته الخالدة:

تلك بيروت
أم حجر الأضرحة

تلك نار السواحل
أم مذبحة
سنقايض فيها دما بدم
وهوى بهوى فاتركى وحشة البحر أيتها السيدة
وتلقى هوى الأرض
ريانة مجهدة
واسمعى نبض أيامها
إن بيروت نار وماء
إن بيروت مذبحة ليس أعدل منها
وبيروت منقوعة
بدماء اللصوص الأنيقين والأنبياء

أما قصيدة «شجرة العائلة»، فهى شلال من الأسئلة الرومانسية حول افتقاد الجذور وإمعان السير نحو الينابيع. إنها التفاتة شعرية نحو الجذور يشيع فيها الوهن والأمل. قصيدة تجمع بين القلق الكامن فى إدراك حقيقة ما يصنع الزمن وبين الضوء الكامن فى الألفة والحب فى الضوء والأسئلة. إن ديوان «شجرة العائلة» للشاعر العراقى على جعفر العلاق نموذج بديع للإضافة الفنية التى قدمتها الموجة الثالثة فى حركة الشعر الحديث ليس فقط فى نطاق الشعر العراقى المعاصر بل فى إطار الشعر العربى خاصة فى عقد السبعينيات. إنه ومضة غامضة مليئة بالضوء والندى والشعر الأصيل.

❑❑❑